الفحولة في النقد العربي القديم

تفطن النقاد العرب الأوائل إلى ضرورة وجود معايير فنية، ومقاييس تمكنهم من نقد الأشعار، والحكم عليها جودة أو رداءة، وتصنيف الشعراء، والحكم عليهم، وإنزالهم المراتب التي يستحقونها، من حيث جودة أشعارهم أو رداءتها، وتجسد ذلك من خلال ما أوجدوه من مصطلحات، ويعد مصطلح الفحولة واحداً من أهم المصطلحات التي تنازلها الدرس النقدي في تراثنا. وفي محاضرتنا هذه سنحاول الوقوف على حدود هذا المصطلح، والمعايير المطلوبة لبلوغه، ونقد تلك المعايير، ثم بيان الأثر الذي أثمره توظيف مصطلح (الفحولة) في الساحة النقدية العربية.

أولا: تعريف الفحولة لغة واصطلاحا:

أ) الفحل لغة: الفحل: الذكر من كل حيوان، وجمعه أفحُل وفحول وفحولة وفِحال وفِحالة ورجل فحيل: فحل.. والفحيل: فحل الإبل إذا كان كريماً منجباً... وكبش فحيل: يشبه الفحل من الإبل في عظمه ونبله... والعرب تسمي سهيلاً الفحل تشبيهاً له بفحل الإبل، وذلك لاعتزاله عن النجوم وعظمه... والفحل والفحال: ذكر النخل.. ولا يقال لغير الذكر من النخل فُحَّال..."[1]. فالفحل لغة يتصف بالقوة والغلبة والكرم والإنجاب والعظم والنُّبل، إضافة إلى أن معاني الفحل في اللغة تختص بالذكر دون الأنثى.

ب) الفحل اصطلاحًا: سئل الأصمعي صاحب "فحولة الشعراء" عن الشاعر الفحل فأجاب: هو "من له مزيَّة على غيره كمزية الفحل على الحقِاق" وفي حكمه على عدى بن زيد" ليس بفحل ولا أنثى". وفحول الشعراء كذلك هم "الذين غلبوا بالهجاء من هاجاهم، مثل جرير والفرزدق وأشباههما، وكذلك كل من عارض شاعراً فغُلِّب عليه فهو فحل مثل علقمة بن عبدة"[2]. وإذا ما حاولت الدراسة أن تتلمس شيئا من وشائج القربى بين التعريف اللغوي والمفهوم الاصطلاحي فيمكن القول: إن الفحولة قد انتقلت من دلالتها على الذكر من كل حيوان، أو من دلالتها على النجم سهيل، أو ذكر النخل، أو ما إلى ذلك مما أفادتنا به معاجم اللغة ـ إلى ميدان الشعر والشعراء، لتوصف بها طبقة من الشعراء تميزت عن غيرها في ميدان الموهبة الشعرية والإبداع الشعري، والوصول إلى مرتبة الفحولة في الشعر ليس أمراً سهلاً أو هيناً، يستطيعه كل من رامه، ويبلغه كل من سعى إليه، ومن هنا نفهم السبب الذي حدا بالنقاد إلى أن يجعلوا الشاعر الفحل في طليعة الشعراء، وفي المرتبة الأولى منهم، فقد ذكر الجاحظ أن "الشعراء عندهم أربع طبقات، فأولهم الفحل الخنذيذ، والخنذيذ هو التام.. ودون الفحل الخنذيذ الشاعر المفلق، ودون ذلك الشاعر فقط، والرابع الشعرور"، إن أول أثر نقدي مدوّن يفصح عن رأي صاحبه في الشعر والشعراء، ويعتمد على أسس محددة وواضحة، وصل إلينا من هذا النوع، هو كتاب "**فحولة الشعراء**" للأصمعي الذي سنتناوله فيما يلي:

ثانيا: شروط الفحولة عند الأصمعي –ت216ه-: أقام الأصمعي معظم أحكامه على أساس مبدأ نقدي ثابت ومحدد وهو مبدأ الفحولة إذ اتخذ منه معيارا نقديا للموازنة بين الشعراء وتفضيل بعضهم على بعض، من خلال النظر في أشعارهم ومدى استيفائها لمجمل خصائصه وأركانه، التي تتمثل فيما يأتي:

1) **شرط الطاقة الشعرية:** يقوم هذا المعيار على نقطتين هامتين تتمثلان في:

أ) **غزارة الإنتاج الشعري: (الكثرة /الكم الشعري):** من الموضوعات التي رتب عليها الأصمعي الشعراء فحولا وغير فحول معيار الكثرة، فكلما كان الشاعر مقوالا مكثرا كان له النصاب الذي يرتقي به إلى مصاف الفحول، وبالتالي لا يعتد الأصمعي بالأبيات والمقطوعات القصيرة، بل يتخذ من القصائد الجيدة أنموذجا متعاليا يطالب من خلاله الشاعر أن ينسج على منواله. فمن النماذج النقدية التي ساقها رده على سؤال أبي حاتم السجستاني قلت: فالحويدرة؟ قال (أي الأصمعي): لو قال مثل قصيدته (العينية) خمس قصائد كان فحلا ". وقال في شأن أوس بن غلفاء الهجيمي: لو كان قال عشرين قصيدة كان لحق بالفحول". فالأصمعي يرى أوسا من الشعراء المقلين إلى حد كبير وهذا لا يؤهله ليرتقي إلى مصاف الفحول.

ب) **قدرة الشاعر على القول في أغراض شعر متعددة:** لهذا المعيار الذي اتخذه الأصمعي مضمارا يقيس من خلاله فحولة الشعراء أهمية عظيمة، وميزة تبرز براعة الشاعر ومقدرته على نظم الشعر في مختلف الأغراض الشعرية،

2)**شرط الجودة والتفرد والسبق والتأثير:** الشاعر **المُجيد** إنما هو بمثابة المرجع الذي ينهل منه الشعراء، فالشاعر المجيد هو فاتح الطريق أمام الشعراء في الكثير من الموضوعات وتطويع الأغراض الشعرية، ومثل هذه المكانة الرفيعة أولاها الأصمعي لامرئ القيس وذلك في قوله: "ما أرى في الدنيا لأحد مثل قول امرئ القيسّ:

قاهم جدهم ببني أبيهم لأشقين ما كان العقاب

قال أبو حاتم: فلما رآني اكتب كلامه فكر ثم قال: بل أولهم كلهم في **الجودة** امرؤ القيس، له الحظوة **والسبق**، وكلهم أخذوا من قوله **واتبعوا** مذهبه "، ولم يخف الأصمعي إعجابه الشديد بامرئ القيس لما يحويه شعره من جودة حتى فضله على من سواه من الشعراء، وبالتالي فشرط جودة الشعر من أحكم وأقدر المعايير التي تحدد مقدرة الشاعر الفنية، وتفرده وتبين مكانته وفحولته بين الشعراء.

3)**شرط الطبع:** أخرج الأصمعي زهير والحطيئة من دائرة الفحولة لأنهما يجودان شعريهما، فرأى انهما لا يستحقان دخول جنة الفحولة، وذلك أن خاصية الصنعة لديهما غلبت الطبع، وعليه يشترط الأصمعي على الشاعر أن يكون على الفطرة حتى يتأتى شعره متفاوتا أي أن يجمع بين القوة واللين في شعره.

ثالثا: شروط الفحولة عند ابن سلام الجمحي-ت232ه -:

عرف النقد على يدي ابن سلام الجمحي رواجا كبيرا من خلال كتابه **"طبقات فحول الشعراء "**، حيث وضع الشعراء في موازين تحدد مكانة الشاعر أمام غيره من الشعراء، ونستطيع القول إن "ابن سلام لم يقسم الشعراء إلى فحول وغير فحول كالأصمعي ،إنما نظر في الطبقة الأرقى عادا إياها معيارا لأنه جعل الشعراء في طبقات ناظرا إليهم بملاحظة تقارب مستويات الأداء الشعري ،ذاك التقارب الذي يضعهم في (طبقة) ،ثم تفاوت مستويات الأداء

الشعري، ذاك التفاوت الذي يوزعهم في (طبقات) ،وهو في هذا وسع الأفق النقدي الذي حدده الأصمعي قبله" ،أما معايير الفحولة عنده فهي :

1- شرط الكثرة: اعتمد عليه في المفاضلة بين الشعراء حيث يقدم الشاعر على الآخر والطبقة عن الأخرى بحسب الكثرة والكم الشعري، وكلما وجد الشاعر مقوالا للشعر غزير الرواية له قدمه دون تحرج على باقي الشعراء .وهذا ما نلمحه في تبريره لتأخر منزلة طرفة بن العبد وعبيد بن الأبرص وعلقمة بن عبدة وعدي بن زيد إلى الطبقة الرابعة إذ يقول :"وهم أربعة رهط فحول شعراء ،موضعهم مع الأوائل ،وإنما أخل بهم قلة شعرهم بأيدي الرواة ".وكذلك في معرض حديثه عن الطبقة السابعة قال :"أربعة رهط محكمون مقلون، وفي أشعارهم قلة ،فذاك الذي أخرهم "

2- **شرط تعدد الأغراض الشعرية:** هو معيار اعتمده ابن سلام في توزيع الشعراء والمفاضلة بينهم، ويتضح هذا الأثر بصورة جلية في مواضع عديدة من طبقاته فقد قال بشأن الأعشى: "هو أكثرهم عروضا وأذهبهم في فنون الشعر، وأكثره طويلة جيدة، وأكثرهم مدحا وهجاء وفخرا ووصفا، كل ذلك عنده". ومن ذلك ما نراه في تبريره لتسبيق كثير (الطبقة الثانية) على جميل (الطبقة السادسة)، مع أن جميلا مقدم في التشبيب على كثير وعلى شعراء النسيب جميعا: "وكان لكثير في التشبيب نصيب وافر، وجميل مقدم عليه ...وله في فنون الشعر ما ليس لجميل، وكان جميل صادق الصبابة وكان كثير يتقول ولم يكن عاشقا ". وابن سلام في تأكيده على هذا المطلب في الشاعر ينفي فكرة التخصص في الشعر، التي لم تكن مقبولة في موازين النقد آنذاك.

3- شرط الجودة: يعتمد ابن سلام معيار الجودة في ترتيبه الطبقي ،فالشاعر المكثر المجيد مقدم في ترتيبه ، على الشاعر المقل المجيد ،والمكثر المجيد متعدد الأغراض مقدم على المكثر المجيد الذي لم يقل إلا في غرض أو اثنين ،أما كثرة الشعر وتنوع أغراضه فنهما لا يقدمان شاعرا إن كان شعره رديئا ،لأن معيار الجودة هنا يحتم تقديم المجيد على غيره من الشعراء حتى ولو سلك أغراضا عديدة في الشعر :"وكان الأسود شاعراً فحلا، وكان يكثر التنقل في العرب يجاورهم فيذمْ ويحمل ، وله في ذلك أشعار، وله واحدة طويلة رائعة لاحقة بأجود الشعر، لوكان شفعها بمثلها قدّمناه على مرتبته «،أما حسان بن ثابت فقد قال فيه:" أشعرهم حسان بن ثابت وهو كثير الشعر جيده"، وبسبب الجودة وضعه ابن سلام على رأس فحول شعراء القرى العربية .

رابعا: شروط الفحولة عند ابن قتيبة –ت276ه-:

1- شرط الزمن: رأى ابن قتيبة أن النقاد في عصره إما متعصب للقديم ويلزم الشعراء بمنوال الجاهليين، ولا يقبل لهم عذرا في ذلك ،كما أنه لا يقبل لهم رواية ولا يقيم بهم حجة ،ومنهم من ثار على القديم وانتصر للحديث بدعوى ضرورة مسايرة الحياة الجديدة ، أما ابن قتيبة فنراه يأخذ موقف الرابط الواصل بين القطبين، فلم يفصل بين ما هو قديم عتيق من عيون الشعر ،وما هو محدث مولد جديد ،حيث يرى أن **الموهبة الشعرية لا تتقيد بزمان ولا بمكان** لأن الله لم يقصر العلم والشعر والبلاغة على زمن دون زمن، وكما أن في القديم شعرا جيدا وآخر رديئا، فكذلك حال المولد والمحدث من الشعر يحوي في طياته جيدا ورديئا ، ومن ثمة فإن ابن

قتيبة يميل إلى الشعر الجيد من أي جهة أتى، وهو يقول في ذلك: "ولم أسلك فيما ذكرته من شعر كل شاعر ولم أسلك، فيما ذكرته من شعر كلّ شاعر مختارا له، سبيل من قلّد، أو استحسن باستحسان غيره. ولا نظرت إلى المتقدّم منهم بعين الجلالة لتقدمه، وإلى المتأخّر (منهم) بعين الاحتقار لتأخّره. بل نظرت بعين العدل على الفريقين، وأعطيت كلا حظّه، ووفّرت عليه حقّه".

خامسا: شروط الفحولة عند ابن رشيق القيرواني-ت456ه-:

يعتبر ابن رشيق من زمرة المؤلفين في مجال الطبقات، حيث لم يخرج في كتابه الأنموذج عن المعايير التي سلكها غيره من النقاد، والملاحظ أنّ أغلب معاييره فنّية، يظهر فيها إيمانه بفكرة أن الأدب للفن والقيمة وأولها:

1)شرط الجودة: يمكننا القول إن معيار الجودة عند ابن رشيق في أنموذجه هو الأساس الذي تقوم عليه بقية المعايير إن كان لها اعتبار، إذ أنه من البداية لمّا ألّف كتابه في شعراء القيروان ، ذكر أنّه رجّح بين شعراء كتابه من ناحية الجودة [1]. يتجلّى مفهوم الجودة عنده من خلال حسن التصوير والتشبيه ولطافة الألفاظ ورفض الطبع الموحش والتصنع المتكلَّف مع إحكام اختيار الوزن، وحصول الانسجام في البيت والقصيدة الشعرية، إذ كثيرا ما يركز ابن رشيق تعاليقه النقدية على هذه القضايا مثل قوله في ابن حيان الكاتب: "شاعر ذكي متوقد سلس الكلام تطيعه المعاني، وينساغ له التشبيه، وتحضره البديهة".

2) **شرط الكم والكثرة:**

أعمل ابن رشيق هذا المعيار لكن من غير أن يعتبره شرطا أو ضابطا مؤثرا، خاصة وأن إكثار الشاعر أو إقلاله بالنسبة لابن رشيق لا يعتبر مهما لأنّ "هؤلاء المقلّين فيهم الكثير من المجيدين" ، لذلك ففحولتهم ومقدرتهم الشعرية لا يمكن أن تفوته، وإن أورد ابن رشيق مصطلحا يخص هذه القضية فليس بمعزل عن معيار الجودة ، لكن مع ذلك فإن أغلب ملاحظاته القليلة جدا المتعلّقة بهذا الموضوع تتعلّق بقلّة شعر الشاعر.

3- **شرط الدين والأخلاق:** إن معيار النقد الديني و الأخلاقي يعد مقياسا ثابتا أو مؤثرا عند ابن رشيق ، إذ يلاحظ أنهّ كان يرفض الهجاء، و يلاحظ ذلك من خلال بعض تعليقاته مثل قوله في المثقال: "شاعر مطبوع قليل التكلف سهل القافية، خبيث اللسان في الهجاء عيار ماجن لا يمدح أحدا، وقوله في الفراسي:" كان شاعرا خليعا ماجنا شريرا كثير المهاجاة ، قليل المداراة، خبيث اللسان"، وهذا الخط واضح عند ابن رشيق قرره في كتابه العمدة إذ يقول :"وجميع الشعراء يرون قصر الهجاء أجود، و ترك الفحش فيه أصوب إلا جريرا فإنه قال لبنيه إذا مدحتم فلا تطيلوا الممادحة و إذا هجوتم فخالفوا" .

4- **القدرة على الإبداع والتصرّف في الشعر:** في كتاب الأنموذج عند ابن رشيق لا يختلف الأمر كثيرا كما هو عند ابن سلام، إذ أنّ ابن رشيق يلمح في العديد من المواضع إلى مقدرة الشاعر على التصرّف في أغراض الشعر كتعزيز لإبراز مكانة الشاعر ومرتبته، وليس شرطا

أن يكون الشاعر قد كتب في كل أغراض الشعر. لكن مع ذلك فإنّ ابن رشيق يشير إلى أن مقدرة الشاعر على التصرّف في أغراض الشّعر وتنوّع إبداعه يكسبه مزية إضافية عن غيره يقول: "وفي شعره من القوة والتصرّف والتصنّع ما ليس في شعر غيره من أصحابنا، وهو مع ذلك كثير قال في محمد بن مغيث: " كان شاعرا مطبوعا، مرسل الكلام، مليح الطريقة، يقع على النكت ويصيب الأغراض، وفي الخولاني: "شاعر ماهر، صاحب قواف شرّد ولغة عويصة إذا شاء، وله قدرة على الكلام يأخذ من رقيقه وجزله، ويسلك في حزنه وسهله مع حفظ للغة العرب ومعرفة بفصول الشعر".

5- **معيار الزمان والمكان:** اتخذ ابن رشيق في عمدته من هذه المسألة موقفا معتدلا متوازنا قوامه أنّ المعيار الزمني والمكاني قاصر في العملية الأدبية، إذ أنّ كلّ قديم هو محدث في زمانه بالإضافة إلى من كان قبله كما نقله عن ابن قتيبة إذ أنّ الله تعالى لم يخص فئة بالكلام و فنونه عن أخرى وهذا ما مارسه فعلا في أنموذجه فبالرغم من أنّ الأنموذج يخص شعراء زمن و إقليم معين إلا أننا لا نلمس مفاضلة بين الشعراء بسبب أزمانهم ولا أمكنتهم وإنما نجد إشارة إلى أثر البيئة على إبداع الشاعر حين نقل ابن رشيق عن شيخه النهشلي نصا مهما في أثر البيئة في الشعرية يقول فيه : "قد تختلف المقامات والأزمنة والبلاد، فيحسن في وقت مالا يحسن في آخر، ويستحسن عند أهل بلد ما لا يستحسن عند أهل غيره.